«عن الحبّ والموت»❖: القيامة من بين أموات الحياة

محمد شريف الجيوسي❖❖

لم يكن هشام البستاني في مجموعته القصصيّة الأولى، **عن الحبّ والموت**، كاتبًا محايدًا؛ فقصصُه مشبعةٌ بالمواقف والإيديولوجيا، ولكنْ في غير إقحامٍ أو ابتذال. غير أنّها لم تقتصر على الإيديولوجيا، التي تبدو مخمليّةً نخبويّةً أحيانًا كثيرة، بل تراه ينقل صورًا من عالم مختلف، مكانُه قاعُ المدينة الطافح بالشظف والعرق.

ففي قصّة «مأساة بائع كتبٍ مستعملة» يتناثر رجالٌ ونساءٌ على الأرصفة خرقًا باليةً، عليها ما هبّ ودبّ من الحاجيّات: مجلات مهترئة بلعبٍ مخلّعةِ الأيدي والرؤوس، أشرطة ڤيديو مستهلكة، ملابس وأحذية عافت نفسَها لتكرار لابسيها. لكنّ البستاني عالج هنا أكثر من مسألةٍ في آن، وبعددٍ محدودٍ من المفردات المنسابة بتلقائيّة، مبْرزًا في وسط هذا الكمّ (المهملِ من الناس والأشياء) وجودَ أشياء ثمينة، هي الكتبُ المهمَلة لكن المهمّة. إنها كتب (وإنْ لم يوضح القاصّ ذلك) تَخلّص منها ورثةُ أعلام في الفكر أو الأدب أو السياسة بعد أن اعتبروها عبئًا عليهم، فباعوها بأبخس الأثمان، أو بلا ثمن على الإطلاق. فكأنّ البستاني أراد القولَ إنّ بين هذا الكمّ المذهل من الفوضى ما يستحقّ البحثَ، وإنّ ورثة الدم ليسوا بالضرورة ورثة علم أو أدبٍ أو فكر. والأمر الثاني الذي أبرزه القاصُّ هو تلك النظرة الفوقيّة (أو الدونيّة) التي مارستها المرأةُ الأجنبيّة تجاه بائع الكتب، وإلاّ لما قذفتْ بالكتاب المغبرّ في وجه البائع وهي تشتمه،

ولما نال الكاتبُ/بطلُ القصة حظّه هو الآخر من شتائمها عندما حاول التدخّل. لكنّ ذلك أيضًا يعكس أنّ بعض الغرب على الأقلّ يعرف شيئًا من طبائعنا، وأنه قد يجد بين أكوام الفوضى ما هو مهمّ ولم يلتفت إليه البعضُ في مجتمعنا.

❖ ❖ ❖

يهجس البستاني بذمّ الطغاة. ويمكن هنا التعريجُ على قصّته «عند أعتاب الطاغية.» وفيها يوجّه البطلُ حديثه إلى الطاغية، راجيًا منه أن يقْبله واحدًا من عبيده أو خصيانه أو طواشيه أو غلمانه أو أداة من أدواته يستعملها كيف يشاء، منوّهًا بأنه رمى بعقله في أحد الثقوب السوداء، ووضع مكانه حاسوبًا يابانيًا يبرمجه الطاغيةُ كما يشتهي بكبسة زرّ!

هنا قدّم البستاني من عروض الانسحاق للطاغية ما يطول الحديثُ فيه، وبمفرداتٍ ومعانٍ تثير الضحكَ حتى النواجذ، ولكنْ بشعور طاغٍ من الألم والاستياء من تغوّل الطغيان. ونجد نموذجًا آخر للطاغية في قصة «الرؤيا»؛ فالحاكم بأمر الله (وفي ذلك اتّكاءٌ على التاريخ) يتخلّص من شعبه بتسميمهم جماعيًا في القصر الرائع الذي قاموا ببنائه خصّيصًا له:

«انتهى القصر، قصرُ الشعب، بعد شهرٍ واحدٍ من الذكرى الثالثة ليوم البناء العظيم، وخرج الحاكمُ بأمر الله الأوحد للمرة الأولى من بيته الرخاميّ ليتفقّده: أعمدة رومانيّة تتعالى نحو السماء، أقواس قوطيّة تتقاطع في اندهاش، مقرنصات أندلسيّة متراكبة متعاضدة، تماثيل أثينيّة تكاد تنطق باسم الملهم، و٣٠٠ غرفة من العرق والدم والموت.»

❖ ❖ ❖

اتّكأتْ قصصُ البستاني على التاريخ والتراث والميثولوجيا، حتى كادت تكوّن القاسمَ المشترك بينها، ولكنْ على نحوٍ يختلف عن استخدامات الآخرين، بما تخلّله من إضافةٍ للإيديولوجيا، ومن رمزيّةٍ وتهويمات، وبما تبديه من غموضٍ أحيانًا، تاركةً هامشًا مهمًّا لإعمال الفكر والخيال.

ومن أمثلة ذلك قصّتُه «يوسف يزور المدينةَ للمرة الأخيرة،» إذ ختمها بما يأتي: «الأوكسجين يتراجع أمام الأمونيا، والذباب يحتلّ الفضاء. لا مكان لي هنا. سأقفز عائدًا إلى غياهب الجبّ، فلن أعيش في الحاوية.» وذلك نقدٌ قاسٍ ومبدعٌ للواقع، من خلال المزاوجة بين مفردات التاريخ (يوسف والجبّ) ومفردات معاصرة (الأوكسجين والأمونيا والحاوية والتلوث)، لتقريب الصورة.

❖ ـ هشام البستاني، **عن الحبّ والموت** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨).

❖❖ ـ كاتب أردني.

وفي قصة «دُوَار» نقرأ:

«بيوت عبدون وشوارعها تبدو كعذراواتٍ بيضٍ خارجاتٍ توّاً من **ألف ليلة وليلة**، يتسطّحن بغنج. وإلى المدى البعيد، وبوضوح أقلّ، تبدو بيوتٌ أخرى أكثرُ عددًا، وأقلُّ شأنًا، يركب بعضُها بعضًا. تلك بيوتُ الجبل الأخضر والأشرفيّة التي تشكّل خلفيّةً لعبدون من حيث ينظر. وكأنّ السخرية لا بدّ أن تتمّ: [فـ] الفقراء خلفيّاتٌ للأثرياء، مؤخّراتٌ يجلسون عليها، فتتحمّلهم، ويستعملونها لإنجاز أعمالهم القذرة، فتلفظ أوساخَهم بلا اعتراض...»

هكذا نرى البستاني لا يفوّت فرصةً للتعبير عن قناعاته المتصلة بالواقع المعيش، بمفرداتٍ ساخرةٍ أحيانًا، ومرّةٍ أحيانًا أخرى، ومغرقةٍ في الرمزيّة أحيانًا ثالثة، وسوقيّةٍ أحيانًا قليلة. لكنّ أغلبها كان على صلةٍ حميمةٍ بالميثولوجيا والتاريخ والجغرافيا القريبة وعلم الاجتماع والبيئة، وبالمشاعر الإنسانيّة الحميمة في أغلب الأحوال.

❖ ❖ ❖

تتفتّق قصصُ البستاني عن عبثيّة النضال والإيديولوجيا والعمل العامّ. أحيانًا نراه يقول: «هل هناك ما يستحقّ الحياة؟ ربما كان غيفارا مخطئًا،» أو: «لم يعد هناك أملٌ في التطهّر أو الخروج من الدوّامة، عندها يتحوّل العملُ النضاليّ إلى منفضةٍ واقفةٍ في الهواء تنتظر سيجارةً منتهيةَ الالتهاب للانطفاء بها،» أو:

«أن تكون نظيفًا معناه أنك تملك صكّ غفرانٍ من رئيس الجمعيّة/النقابة/الحزب. أن تكون مناضلاً معناه أن تقف فوق بكب[1] لتقول للمتظاهرين: 'انصرفوا راشدين'. عندما يُحكَم الرفيقُ بأسبوعين سجنًا، استنتجْ أنّ هذه مؤامرةٌ من النظام لتلميعه، ولا تدافعْ عنه. ازعقْ بأعلى صوتك، وأطلقِ الشتائمَ في جميع الاتجاهات. اتّهمْ كلَّ مَن هم حولك بالعمالة. ازعقْ فقط. حذار أن تعمل شيئًا. اجعلْ غيرَكَ يعمل، شرط أن تحصد النتائجَ أو توظّفها لمصلحتك. اقفزْ على المنصب واجعلْه يفتضّكَ بسلاسة. التهمْ تاريخَك ورفاقك وتصريحاتك، ثم الفظْها كلَّها قيئًا حامضًا عليهم، فأنت منذ اليوم غيرك.»

إنّ هشام البستاني الممتلئ، كما يقول عنه أصدقاؤه، بالروح النضاليّة والتحدّي، قد هدّت الهزائمُ بطلَه، على ما يرد في قصته «غيمة صيف بطعم العسل،» لكنه لم يستسلمْ: فهو يسقط ويقوم، ثم يسقط ويقوم. وعندما اختار البستاني القلعةَ العمّانية والمدرّجَ الرومانيّ مكانًا للقاء البطل حبيبتَه، فكأنما أراد أن يقول إنّ العصور تتوالى وتبقى القلعة والمدرّج، يبقى الناسُ وآمالُهم وإبداعاتُهم ونضالاتهم.

إنّ بطل البستاني لتعاودُه إحباطاتٌ وعبثيّةٌ لا طائلَ منها بين حين وآخر. لكنه يبقى ـ وإنْ في تعبيره عن ذلك بالميثولوجيا ـ متفائلاً قليلاً: «تنبثق الدوّامات. أتشبّث بجذع النخلة. ستَجْرُف الدوّاماتُ ربّةَ الماء، وأبقى أنا أهزّ جذعَ النخلة دون طائل.» وبطلُه يسير «في صحراء لانهائيّةٍ، تختلط فيها الزوابعُ بأسراب الجراد. يتشعبط العفنُ على أستار السماء، ويحلّ ظلامٌ دامسٌ فقط ورطوبة.» لكنه يعود بعد كلّ كبوة: «فأنفجر حممًا ملتهبة. وحين يتحوّل الكلّ إلى خراب، ألملم نفسي وأتابع المسير. قلبي ليس أسودَ، لكنه قاسٍ كماسة.» وهنا نرى «يسوع مترجّلاً. رأسُ الحسين ينبت له جسم، ويدان، وسيفٌ يقطع رأسَ يزيد. أبو ذرّ، كارلوس، علي، أوكاموتو، عمّار بن ياسر، غيفارا. كلّهم قاموا. محض خيالات تتبخّر. لكنني أقوم.»

نعم، إنّ الأملَ لهُو دائمًا إلى جانب المعاناة في رأس البستاني. ولذلك يَغمر مجموعتَه إيمانٌ عميقٌ بالنهوض، رغم الإحباطات، ورغم ما يعتور عالَمه من نقص في الحريّة. خذْ قصّته «ذات يوم في جهنّم،» حيث يطاول التعذيبُ العضوَ التناسليَّ نفسَه. لكنّ البستاني لا يرسم صورة بطلٍ أسطوريّ دينكوشوتيّ خياليّ، إذ يقرّ بطلُ القصة تحت التعذيب بأنه القاتل الكافر الإرهابيّ المندسّ..: لكنْ دون جدوى؛ فالتعذيب يتواصل، ويكبّر إبليس. والبستاني، بجمعه بين كلّ الاتهامات، يومئ إلى أنّ قضيّة الحريّة واحدة، وضحايا افتقادها كثر وإنِ اختلفوا، وإبليس (اللعين) هو الرابح الوحيد.

❖ ❖ ❖

تشكّل قراءة **عن الحب والموت** ضرورةً لمن يريد تفهّم رؤى جيلٍ عريضٍ من الشباب العربيّ، مشبعٍ بروح ثوريّةٍ مشاكسةٍ نشطة، وغير منساقةٍ وراء التفاهات، بل تحلم بواقع تقدّميّ وحداويّ. هذا الجيل لم تتَحْ له فرصةٌ كاملةٌ للإسهام في التغيير والبناء والفعل، وتراوحتْ أمانيه بين الواقع المرّ والأحلام الزاهرة المشروعة، ففَرض عليه هذا التباينُ شعورًا بالإحباط والعبثيّة. لكنّ العديد من أبنائه لم يستسلم، أملاً في تحقيق مستقبل مشرف. وكلّ ذلك يقدَّم في مجموعة هشام البستاني بلغةٍ جميلةٍ واضحةٍ سلسة، استفادت من التراث العربيّ والتاريخ والجغرافيا والميثولوجيا، من غير أن تبتعد عن المجتمع المحيط بكلّ ما فيه.

عمّان

١ ـ سيارة نقل البضائع الصغيرة (Pick-up Truck) بالعامية، وكان الإخوان المسلمون أول من استعملها في المظاهرات لحمل السماعات والهتّافين والخطباء، وتبعهم في ذلك بعضُ الأحزاب الأخرى.